

بولس السادس والمعضلة الاجتماعية

في رسالته «تقدم الشعوب»

بقلم الاب اغناطيوس عبده خليفة البسوي

ترفع انكيسة صوتها لتثير الطريق وتتحدثى قوآت اشر منها كانت
وعلت . وتصرخ ألمها عندما تشاهد آلام البشر وضيقاتهم وتحتسبها ،
فتسخل اذالك في الشؤون الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، ورائدحا
الوحيد للدفاع عن الانسان الذي ، في خوضاء عالم يتطور بسرعة : يحلم
في السيطرة على المادة ويخاف ان تسعده هذه المادة بالذات في استئثار
الانانية والاثرة . ويخاف أيضاً بعد أن يكون العلم قد أفاض على البشرية
من خبوره ما يعبر عن عظمة الانسان ونبله : أن تسبب له التثنية من
ويلات الدمار والحراب أكثرها .

ولقد أثرت على الاقتصاد الحديث الثورة الصناعية التي ما زالت تتطور
وتتقدم منذ أواخر الجيل الثامن عشر . فما ان ادخلت التثنية الآلات المختلفة
على الحياة والنسيج حتى بدأت فترة تاريخية حاسمة للاقتصاد الذي نشهد
اليوم : مع التغييرات المدمشة ، نتيجة قوة تلك التثنية وانتصارها .

اتما هناك عناصر غير هذه الثورة : لها اهميتها : ألا وهي جو التفكير
الاجتماعي والسياسي والفلسفي في تلك الحقبة من الزمن التي شهدت ولادة
النظام الذي يوتر قوة الفرد ونفوذه حتى على اتقوة الرسمية والحكومية . فنشأت
إذالك الفكرة الليبرالية التي تدن بالحرية السياسية وتبرز المبادئ الفردية في
الحقل الاقتصادي والتي كانت تجهل أو تجاهل أن المزاحة : وان شرعية
بذاتها . خصبة ، ينتج عنها علم للمساواة والظلم : إذا لم يوجهها تفكير
اقتصادي صحيح ، هدفه خير المجتمع .

ونذا فالاختبار التاريخي يدل على أن المشكلة الاجتماعية وُلدت في إطار تضاحن بين الرأسمال والعمل . فانتقم المجتمع إذ ذاك إلى فئتين متعاكستين متنازحتين . كان ذا التأثير العميق في حياة الأفراد والتعبيل والجماعات الإجتماعية . اضطّر الكنيسة لأن تنقف موقفاً صادقاً وواضحاً أمام الأوضاع المزملة .

فكانت . سنة ١٨٩١ . رسالة لارون الثالث عشر « الشؤون الجديدة » . فيها رسم الحبر الأعظم المبادئ الرئيسية لتجديد وتنظيم إقتصادي اجتماعي يحترم الإنسان في كرامته وحرّيته . فكان لها الأثرُ القمّال . وفكانت تؤدّي إلى نتائج خيرة لولا تصدّت لها تياراتٌ قوية : فكرية وعملية . في الحقل النقابي وفي حقل التشريع والسياسة الاجتماعية والضمان الإجتماعي . ولولا عملت عناصر تحريية على وقف فعاليتها : الى أن صارت الفترة العصية بين سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٦ : حيث عمّت البطالة : في البلدان الصناعية : العدد الكبير من الناس : وحيث غاب عن تلك البلدان بالذات تنظيم الاقتصاد وتوجيهه . الآ أن العمال لم يكونوا وحدهم إذ ذاك ليتألّموا من عدم وجود التوجيه الاجتماعي الواقي : إذ صار المزارعون أيضاً والمحترفون عرضة للاضرابات المخيفة .

•

ولما كان هذا التعامي عن خلعة الإنسان واضحاً : قام بيومس الحادي عشر يعلن سنة ١٩٣١ . في رسالته « السنة الأربعين » ، عن النتائج الإيجابية التي وقّرتُها للعالم رسالة البابا لارون الثالث عشر : إذ الحّت على ضرورة العلاقات الطيبة بين الرأسمال والعمل . وأخذ بعد ذلك يرسم الطريق الجديدة لسياسة اقتصادية تستلهم لا نظرية المراحة الاقتصادية : بل مبدأ العدالة الاجتماعية . ففي التقلبات التي عانى منها المجتمع الكثير من الاضطرابات ، والتي كانت تؤثّر على النظام الاقتصادي : تطوّرت التنتية بسرعة : وتكاثرت المواصلات ومساائل النقل والإعلام . وما كان ذلك الا ليظهر البرين للشاسع بين متطلبات تكاتف الشعوب وبين تحقيقها العملي : على الصعيد الدولي . فبدأ إذ ذاك الترق بين الشعوب المتطورة والشعوب النامية ، مع ما لهذه الأخيرة من سبل قليلة للعيش بالنسبة للسكان : مع ما تقوم أمامها من حواجز تمنع الهجرة : ومن الحدود التي كانت تقسمها البلدان المتطورة الثرية أمام الاستيراد من البلدان الفقيرة ، فحصل اصطدام عنيف بين الرأسمال والعمل ، اصطدام كانت تُعطيهِ المعضلة الاجتماعية باديئ ذي

بدء لونه اخاص : فتطوّر الى اصطدام جديد بين الشعوب الغنية والشعوب الفقيرة . ثم تحفّ هذه الظواهر المؤلمة على الكنيسة : فرفعت صوتها وأنتبت ووجهت النتائج البناءة .

وفي الواقع : قبل ان تنتهي الحرب العالمية الثانية : أعطت الكنيسة المعضلة الاجتماعية أبعاداً جديدة : أبعادها العالمية في رسائل وإرشادات بيوس الثاني عشر مع توجيهات وطرق ايجابية لمعالجة الموضوع .

إنما لم تكن السنوات التي تبعت تقلص الاستثمار وشهدت ولادة الأوطان الجديدة المستقلة الا لتدلل بوضوح على التفرق القائمة وعلى عدم التساوي في المعيشة عند الشعوب .

قامت إذ ذاك المنظمات الدولية والأوطان بمفردها وبمجموعة منها ، تكاتف للعمل على سدّ الثغرة هذه : وعلى القيام بمبادرات تحقّقها في سبيل البلدان النامية . بيد أن النتائج لم تكن مرضية ثابتة آمنة . فكان على الكنيسة إذاً أن تجابه الأوضاع بما جمعت من اختيارات ومعلومات جديدة وحديثة عن المعضلة الاجتماعية وان تعلن للمؤمنين ولغير المؤمنين ما يوسع المسيحيين أن يعطوا عالماً في دعر وتضعض .

من هنا تبعت رسالتنا يوحنا الثالث والعشرين : « إمام ومعلمة » « سلام على الأرض » .

فتي الأولى قال الحبر الأعظم إن الكنيسة هي الأمّ الخنون للجميع ابنائها الذين هم أبناء الأب السماوي ، تحافظ على الحقيقة الموحاة وتعمل على استنساخها بتطبيقها على الواقع في كلّ زمان ومكان ، وبخاصة في ايماننا الراضة .

أما في الرسالة الثانية فدعا يوحنا الثالث والعشرون الى ذلك السلام الباطني الذي هو أساس السلام بين البشر . غير أن على الانسان أن يحافظ على هذا السلام بواسطة المؤسسات التشريعية والسياسية ، الوطنية والدولية ، إذ به تزول العداوة بين الغني والفقير وتكون تكاتف صادق بينها لخير الجميع .

إنما نعلم بكلنا أن الواقع المؤلم لمعدم المساواة بين البشر ليتضح اليوم للرجة . أنه يجعل السلام في خطر . وهذا ما حمل قداسة البابا بولس السادس على أن يعلن للعالم قاطبة في رسالته « ترقّي الشعوب » التي نحن في صدها :

وبكلام ينضح ألماً وأملًا في الوقت عينه : ما هي عليه اليوم تلك المشكلة
الثالثة . المعضلة الاجتماعية .

يعود البابا مراراً الى ان البشرية اليوم على مفترق طرق وانه لمن الواجب
عنى ضمير كل ذي ارادة سالحة ان يهيب للتكاتف مع اخيه في عمل موحد
يعزز تقدم الشعوب . وبخاصة تلك التي تعاني داخلياً وخارجياً المعارك
القدسية في سبيل حرية رزحت تحت وطأة الجوع والمرض والجحيل . وما عاد
الانسان بعد ذلك سوى شيء بين الأشياء لا تميزه عنها ميزة انسانية . فني
ايام مليئة بالتطور العلمي يريد الناس اليوم مشاركة أوسع في ثمار التقدم
وتتوقون إلى تقييم أجدى لصفاتهم الطبيعية الانسانية وليس الى ذلك من
سبل الأ في التطور الاقتصادي والاجتماعي والعقلي . اي في تطور انساني
كامل . هو الطريق الوحيدة التي يجب اتباعها . هو الطريق الوحيدة
لتخليقة بالانسان . هو وحده أساس السلام الحقيقي .

لن أتبع قداسة البابا بولس في تحليل رسالته اثريةً بنداً بندا ، انما
اود ان اقرأها كلها من هذه الناحية الاساسية التي تُعطينا معناها ومغزاها :
الإنسان محور التشكير وأساس العمل .

هذه النظرة الى الانسان بكامله لاتنزع من اهداف سياسية او تقنية
محصن : ولا من غايات اقتصادية : انما يريد فيها البابا العودة بالانسان
الى المعطيات الاساسية التي لها في حياته ابعاد بنيتها تسود الآفاق وتظلم
انتلوب . وهذا فاذا تكلم الخبر الاعظم على ترفي الشعوب في المعنى الذي
نوحنا عنه . فانما يفعل ذلك مستلجماً كلام المسيح وحمية الله للانسان الذي
خلقه على صورته ومثاله وجعله شريكاً له في هذه الحياة الدنيا ليبي عالماً
على صورة ومثال من عليه ان يعيش في هذا العالم فيكرسه ويعطيه امارات
ويجه المسيح لخلاص الانسان نفسه . وليس بإمكان الكنيسة ان تُعطي
الانسان نوراً ليضم نفسه ، ويختم عمل ليستمر كل امكاناته : وليس
بامكانها ان تقوده الى الباطن ليصفي الى صوت الاعماق التي فيها يسمع
صوت الخالق ، ما لم تعد مرات متألمة كلام ربها ومستخلصة منه
لإنسان اليوم ما يسانده في المسيرة الأرضية ويُعطيه فرح القلب وغبطة
الحياة .

من قمة المرصد الذي يسكنه البيا . وهو يتطلع الى عالم يتخبط في مشاكل التكرار والعمل وفي عجمجة اشيرات والآمال . احب بولس السادس ان يقول لنا الاسباب التي حدثت : بعد الاختبار . على الكلام . وبعد ذلك يعود فيحلل الانسان في جوهره وطبيعته . وينتهي فينادي البشرية كاني طالباً الى القسم الصغير منها ان يفتح قلبه بعيداً عن الأنانية والاثرة . وبطلب انقسم الاكبر منها بالفناعة الخدية والحجة الصادقة - فيلثي كلاماً إذ ذلك في معانئة أخوية وتجارب عميق وتكاتف نحو اخير في سبيل بشرية تألم وتأمل .

الظروف المؤاتية للرسالة البابوية والحاجة الى كلمة يُهتدى بها
١ - الفكرة الاولى : للانسان غاية فيما تلثي حياته الارضية
وحياته الروحية دونما تفرقة

« ... أما النور الحقيقي الذي ينير كل انسان فكان آتياً الى العالم ، (يوحنا ١/٩) . هي الكلمة التي تجعل الانسان في هدي مستمر : لو أراد : ان حياته كلها ، ومصيره الى الغاية لن يفهما الا بنور الكلمة المتجسد . وكذلك البشرية باجمعها : فانها لن تفوق من غشيتها ولن تتفوق على الأثرية التي تنكك رباطات الإلثة والحجة بين افرادها ، وإن كانت التفوق عظيمة عرقية او ثقافية وغيرها ، الا بهدي من هو النور والطريق والحق والحياة . والمسيح الاله ، منسئ الكنيمة أودعها رسالته وقوامها على اتيام بها لتحمل الى العالم بشارة الخلاص وتعلن للانسان ، ايها كان : ان الله اراده انحاء للانسان اخيه : وان البشرية وحدة ، خلقتها الله وهو غاية مصيرها .

وما علاقة هذه البشارة بالوحدة والتفوق على الانتقامات بتلك الرسالة الروحية التي اقام المسيح رسلة دعاء لها وشهداً لتحقيقها ؟

لا ينقسم الانسان الى ارضي وسماوي . فاعماله الارضية كلها نسبة الى السماويات ، واعماله الروحية لن تتم الا على الارض في الجسد والمادة . طالما الانسان في غربة عن الوطن الحقيقي الواحد . ولذا فاذا ما قالت الكنيمة كلثتها في الانسان وعمله الارضي ، فاعلم هي تصغي الى رسالتها وتعمل بتطلباتها حسباً يميز عنها الانجيل بوضوح تام . وهذا ما قاله الخبير الأعظم في خطابه التصحي سنة ١٩٦٧ عندما قال : « ما قد حان الوقت لتقول

كلمتنا المتواضعة . كلمة الأمل . لا الأمل الدنيوي فحسب : بل الأمل الاجتماعي . لا الأمل الأرضي فقط بل الروحي أيضاً . وليس ذلك فقط للذين يؤمنون بالمسيح : ولكن للناس أجمعين .

فلا غرو إذآ : فان الكنيسة اذا ما قامت بخدمة الانسان : فالتما تعمل بروحي الانجيل . إذ انها عينا تريد نشر كلمة الحياة الّهم تجسدها في اوضاع الانسان وحياته واضطراباتة وافراحه . فابن الله - الكلمة صار جسداً وحل فينا وأخذ كل ما هو لنا . ما عدا الخطيئة - ليعطينا ما له ويؤله الانسان ويعيد اليه روح النبي الذي كان قد غاب عنه في الخطيئة وفي الابتعاد عن الله .

ولذا انتقى الكلمة - الاله مع ما في الانسان من عمن . التي مع ما فيه من ترق وشوق إلى التمامي . فانسان اليوم الذي يصبر إلى ان يكون الحأ : وان يرتدي بصفات الله : القدرة والعظمة ، والذي يود ان يصير الانسان الكامل : فيها هو الكلمة يقول له ان الانسان الكامل باستطاعته ان يتمثل به وان لا طريق له إلى الكمال المجتني الا بمروره به . فطروح الانسان تم في الكلمة المتجسد . وهذا احسن ما للايمان اليوم أن يعطيه لانسان اليوم . وبهذا يكون قد أعطى لعمل الانسان معنى وثوقه شاية ولتساميه هدفاً .

وفي هذا التوجيه تصير كلمة الكنيسة هذه ورسالتها في ترقّي الشعوب نبراساً يقتدى به وعلامة تدل على الطريق . فهي تود ان تكون في قلب المعارك التي يختمها الانسان : تود ان تحمل العالم ليكون في ما تبته له من شرائع وما تهديه اليه من حياة فيحيا ذلك العالم الذي تيمن عليه الحجة والذي فيه يتكاتف إخوة طالما فصلتهم الأثرة والانانية وبعدهم عن بعضهم غطرسة السلطة والتسلط . ولهذا فنبه ترفع صوتها عالياً داعية أولئك ومدولاء إلى العودة إلى الباطن : إلى التفكير والتبصر ، منادية الانسان ليصير أكثر إنسانية : صارخة بكل ما لها من قوة في صحراء هذا العالم حيث التنافس يسكت صوت الضمير ليعيد الانسان إلى نفسه وإلى ما فيه من ثروة في الاعماق ويعود أيضاً إلى الإنسان أخيه : فيحمل اليه لا كلمة الذل والانصار ، كلمة الحق والضعفة ؛ ولكن كلمة التكاتف والإلفة والحجة لئلا عالم أكثر إنسانية . وبينه الدعوة تكون الكنيسة قد أصابت هدف وجودها على الأرض : الا وهو خدمة الإنسان الذي تحترم ويحل ، ذلك الإنسان الذي خلقه الله

على صورته ومثاله وافتداه المسيح الاله بنجمده وموته على الصليب وانتصاره على الموت . فعلى غرار المسيح يبسها في الانسان كل ما له وكل ما هو منه حسب ارادة الله : افراحه افراحنا . آلامه آلامها . فبني تسانس كمي بنال تفتحاً كاملاً فتعرض عليه ما هو من كنه وجودها ورسالتها ومن كنه الانسان وهدفه : نظرة كاملة لا جزئية الى الانسان والبشرية في سيرها إلى الخالق على أرض اكتشفها الفروض وصارت خالية سخاوية . لا معنى لها لولا نور الايمان ينير معاملتها ويعيد لها الرجاء في ذلك الذي أتى ليخلصها والمحبة الصافية .

الفكرة الثانية - على الانسان للوصول الى هذه الغاية ان يتفوق على نفسه . وفي هذا تتفوق معركته الأساسية

: ما من احد ينكر على الكنيسة أنها تتوحد في تفكيرها وحياتها حول المسيح منشأ ومصدر حياتها : تسلمهم في أعمالها وتعود اليه دوماً لتعلم منه كيف تكون في هذه الارض مكتملة لرسالة الكلمة المتجسد . وهذا فليس لها من عقيدة خاصة بها ولا من فلسفة تُعطي الانسان بعض التوجيهات العقلية والاخلاقية . انما عقيدتها المسيح وليس الآء من تفتش بقربه عن آفاق تطبيقية تشرح الآفاق الالهية والانسانية التي اتاجا بها المسيح لاحقاق ملكوت الله على الارض بواسطتها . فالكنيسة اذا تحمل الانسان على التعرف في المسيح الى من هو اصلاً وإلى ما عليه ان يصير في تطوره الانساني الكامل . وهذا التطور ليكون صحيحاً وبعيداً عن الفساد والغلط ، عليه ان يحمل الانسان على الاندماج الكلي بالمسيح فينشع اذ ذلك ويتوصل الى انسانية تتسامى فوق الترهات وتصبح في امان من كل منطقات فلسفية تود ان تحصر الانسان على نفسه فتجعل منه غاية التطور الاقتصادي ليس الا ، او بالحري تجعل منه ذلك الذي يوحى بالتطور الاقتصادي : لأنه من الخبر وحده يحيا .

والانسان لن يصير اكثر انسانية الا بالمسيح وما يعطيه آياه المسيح من قيم تسانس في حياته الدنيا وتسانسه على الأبيط أو يترتب إلى مهاري الفراغ ، وأي فراغ اكبر من ذلك الذي يحدد الانسان بالبطن وبالحزنوب ، كما كان يقول بولس الرسول عن الانسان الارضي الذي لا هدف له في الحياة الا الارض .

ومن بين تلك التقييم الايمان الذي يحمل الإنسان على صفاء حياة وأمانة لله وينشوق العبير الذي يصرخ في الاعماق ان وخلقنا يا الله . وسيظل القلب حائراً الى ان يثبت فيك ، على حد قول القديس اغسطينوس .
ومع الايمان اخبة التي تجمع حور المسيح كل ابناء البشر ليشاركوه عملياً في بناء الملكوت .

وهاتان التفضيلتان تعطينان الإنسان معنى حياته وتجعلانه يتسامى دوماً الى فوق . الى المطلق . حيث يرتاح الى نفسه ويشاهد الله في عطاء مستمر لا ينضب معينه اذ ينبوع هو الله والمصدر الأوحيد هو الخالق .
ويشعر اذ ذلك بان الايمان واخبة هما ايضاً على تطور في حياته ؛ يقتضيان منه التجرد ونكران الذات واجلدة المتواصل الذي به يصير الإنسان انساناً حتماً بعد أن يكون احتمال الألم وذاق المرّ بمحبة في سبيل اخوة له ؛ ليتود العائلة البشرية بكاملها الى التقدم . وفي هذا الجهد يخترع الإنسان مدى التسامي الذي هو مدعو له ؛ فيتجاوز دوماً الحدود التي وصلها الى انطلاقة أوسع ، وهذا هو الترقى الصحيح ، الذي يجعل من الانسان مصدر اخوة وعلامة العناية الالهية بين اخوة له .

الشكوة الثالثة - للانسان محور تفكير الكنيسة في صلته مع المحور الأوحيد : المسيح الانسان الكامل

وانتي للكنيسة ان تهتمّ خذد الدرجة بالانسان ؟ انتي لما أن تعبر تطور الانسان وترقيه وتقدمه ذلك الاحتمام . اليس في ذلك خوف من ان تنحصر في هذه العناية وتضرب عرض الحائط بكل ما في الانجيل من دعوة الى التطلع الى فوق ، الى الله .

هناك ، ولا شك ، خطر البقاء على صعيد بشري ، إنساني محض . انما الكنيسة بادئ ذي بدء : اذا اعتنت بالانسان فما ذلك الا قبض من رسالتها ، وأمانة في عنتها ، تقتدي في ذلك بالمسيح وتتجسد في أوضاع تكرسها وتقدسها وتعلم ما هي للانسان . انما لا تقف عند هذا الحد بل تتجاوزة وتكشف للانسان عن الوسائل التي تسانده في تحقيق غايته وفي السير بالبشرية الى الامام . تكشف له عن حقيقته وعن سموه وعن عظمة هدفه حسب ارادة الله وتسير به صعوداً . ولكنها لا تدعي أن لها حلولاً

سياسة أو تفتية وخاصة في هذا العصر اثنتي. وكفى الإنسان ذكاءً ومهارة ليعد حدود المعرفة كل يوم إلى أقصى ما يمكنه : فهي تصيب في الإنسان متطلباته الأساسية : مصاحبه تسيح وخلاصه . وهذا فالخلول التي تعرضها لترقي الإنسان وبالتالي لترقي الشعوب . إنما هي على صلة وثيقة بيذه المتطلبات دون غيرها . تعرض . في صنتها بالعالم . حلولا تقدم تقدم الإنسان ووحدة البشرية . وفي ذلك تتحسن الكنيسة كل ما يبعد الإنسان عن نفسه وعن إخوته ، كل ما يسجن فيه حقيقة الله وكلامه : وفي الوقت عينه كل ما فيه من طموح وتوق . فالكنيسة على حد قول المجمع المسكوني في دستوره عن الكنيسة ، هي سر ، اي علامة ووسيلة للاتحاد الوثيق بالله ، وعلامة ووسيلة للرحلة بين بني البشر .

الفكرة الرابعة - وحدة البشرية

يستتج مما تقدم ان من يعمل على تحقيق وحدة البشر فيما بينهم ومع الله : يعمل في سبيل التقدم الشامل . اي في سبيل كل انسان وفي سبيل الانسان بكامله . ومن يحمل الانسان على ان يتقدم ديمياً في انسانيته وعلى ان تصير الأوضاع التي تعيش فيها البشرية اكثر ملائمة لطموح الإنسان وتوقه الى التسامي : يعمل ايضاً في جذبه الى الله . وأخيراً من يتودد الانسان الى التميز بمسؤوليته الشخصية ولى العمل على نمو البشرية وتتموه الذاتي ، فهو يحرره ويجعله شريكاً فعلاً لله في بناء المدينة الارضية : وبذلك يعمل على توحيد ابناء العائلة البشرية بأسرها .

الى هذا ترمي الكنيسة في عملها كله وهي تشهد أن الانسان هو امل الله وموضوع اهتمامه ، اذ أقامه حراً ، يخاطبه ويجعله شريكاً له ويتبناه ويوقظ ضميره بواسطة كنيسته لكي يتعرف الى بنوته ويعمل بها : اذ انه اوسل ابنه الوحيد الذي به كرون كل شيء في السماء وعلى الأرض ، ذلك المسيح الخادم والمتألم : ذلك المسيح المتصر على الموت . بجامع الكون والبشرية كلها .

فعلى الكنيسة اذاً ان تشيد للامل الذي لله في الإنسان . دورها في ان توقظ حريئات ومسؤولية .

هي المبادئ الأساسية التي تُعطي الترقّي وجهاً ووضوحاً سامياً ونُعدّد
ملكه برسالة الكنيسة التي هي . على الأرض ، تسمّى لرسالة المسيح . إنما
علينا الآن أن نلجج كلام قدامة البابا بولس لتحليل بدقة أكبر معطيات
هذا الترقّي .

هناك بلاد تعاني الجوع والبؤس ومصائب الحياة العديدة . أمّا لفقراً
وأمّا لكثرة سكانها و أمّا للسينين معاً . وهذا الجوع يكون اليوم صرخة تهبّ
ضائر البشر . وخاصة تلك التي تهبّ من داخل البلاد المتخمة التي تتصرف
بالمال وكأن المال لها وليس لتخفف عن الإنسان ما يجعله يرزأ تحت ثقل
الفقر والعوز ويمنعه من ان يكون انساناً حقاً ، إذ هو شبيه بالحيوان يستعطي
ولا ينال ويعود الى درجة انسانية منحطة لا يميّز فيها عمّا دونه في
اختلاق . وهذه الصرخة تجعل الكنيسة اليوم ترتعش حزناً وامتناعاً وتنادي
الانسان لينظر الى اخيه الانسان دون موارد او اناية او حبّ التسلط .
فانها يشتركان في الانسانية نفسها وهي التي تخلق بينها صلة عميقة تنامي
فوق الأناية القتتالة .

ولذا فان البابا يدعو من تكاثرت الثروات بين أيديهم الى العودة الى
الضمير ، والضمير اليوم أمام بؤس الكثيرين ليلجوي في اعماق البشرية
يستحلفها ألا تترك من بهم فقر وجوع بل ان تساندهم في الاعتناق من
وفي السير نحو انسانية اكمل ومسؤولة .

والكنيسة إذ تصرخ عالياً مرارة ائتمن تقول للانسان ان الترقّي والعمل
من اجله جزء لا يتجزأ من دعوته الاصلية . والانسان الذي لا يتطور ولا
يتقدم ولا يساعد الغير على النمو والتقدم بوضع امكانياته كلها ، أدوية او
عقيلة او جسدية ، في سبيل انجاح أخيه الانسان فان هو الا ذلك الذي
يسهم في تدهور الكون والبشرية : في تدهور انسانيته بالذات ، وقد كُتب
له ان يساعد البشرية وان يجعل من الانسان أخيه رجلاً يعزّز وينمو ، أن
يجعل منه انساناً حقاً .

إنما ليست المساهمة فقط في المادة والدنيويات . المساهمة في انسة
الانسان تقوم ايضاً على خلق جوّ من الحرية والمسؤولية . فهناك جهود
لاستباب العدل والعدالة والمشاركة والمخية إلى أن ينعم كل انسان والناس
كلهم وكل بلد ويصبحوا العامل الذاتي لتعلمهم وترقيتهم . إذ ليس من
المفقول أن ينعم قريتين من البشر بالحرية ومحرم منها القسم الأكبر من

البشرية دون ان يعطى الوسائل الملائمة للانتصار على الجبل والعوز وانتشر
 وبتحرر من ربة الجرح فيلم إذ ذلك الانسان ويسير إلى غايته فرحاً .
 وخلاوة على ذلك فان حرية الانسان ليست فقط اقتصادية . الحرية
 تشمل الانسان بكامله . شرعي ان يبد الإنسان حاجته . شرعي ان يستعمل
 الوسائل لذلك . شرعي ان يدخر من المال ما هو بوجهة اليه ويستخدم
 الباقي لمشاريع يفيد منها المجتمع . اما التفتيش عن الثروة فقط يقوم حاجزاً
 أمام نمو الكيان والجهر وعظمة الانسان الحقيقية . إذ القيمة هي الإنسان .
 وغاية الترقى ان يخدم الانسان والمجتمع والمدنية والتقى الروحية : لاسي لقاء
 الإنسان بخائفة في المسيح . الانسان الكامل ؛ لاسي ايضاً لقاء الانسان
 بنفسه وقد صارت التقى العليا حلينته : من حب وصدقة وصلاة وتأمل .
 وبهذا يتم الترقى الذي ليس سوى العبور من اوضاع اقل انسانية الى اوضاع
 اكثر انسانية .

انما على كل فرد من افراد المجتمع الذي يعمل لتقدمه الشخصي ان
 يعلم حق العلم انه بتكاتف مستمر مع اخيه الانسان ، شاء ام ابى . فالبشرية
 وحدة مترابطة . فمن يعمل على التقدم ، مسؤول عن تقدم اخوته في
 الانسانية . وأن نرى اليوم شعبياً باكثرية سكانها ترواح تحت وطأة العوز
 والجوع ، فما ذلك سوى الدليل على عدم تقدم اجتماعي وادبي وروحي عند
 الشعوب الثرية . فالمسؤولية جماعية ولن يكون الترقى كاملاً إلا اذا كان
 في تكاتف التردد مع أخيه ، والبلدان مع بعضها . ومن هذا التكاتف
 ينبع توجيه صاف للحياة الدولية بأسرها .

من الطبيعي ان يبدأ بالعمل بهذا التكاتف الأفراد والجماعات والبلدان
 التي تفيض عنها الثروات فيوجهوها الى غيرهم ويعززوا بهذا عالماً اكثر
 انسانية للجميع ؛ حيث على الكلي ان يغطوا وان يأخذوا دون ان يكون
 تقدم الواحد حاجزاً أمام تقدم الآخر .

ونكون هكذا قد سرنا الى خلق الأجواء حيث لا تفرقة عرقية او جنسية او
 دينية ، يعيش الانسان حياة انسانية كاملة ؛ حرة من كل عبودية خارجية
 في عالم حيث كلمة الحرية ليست كلمة فارغة .

التقدم مرتبط بالمصير الانساني ، وهذا المصير متعلق بالتقدم والترقى .
 فما العمل للعبور من الشكليات والكلام الى العمل والنتيجة الفعالة .

يتطلب هذا الترفي تغييرات كثيرة وتحدد الاعراق . وبما أن مشكلة الانسان تطرح اليوم في جو من التوتر والمعارك الايديولوجية . فمن الحكمة المعجزة في العمل وفي سدا الحاجة الى الخلود . وعلى كل منا أن يساهم اذا ما كان مستعداً لمشاركة أخيه الانسان في إتمام الإنسانية . أياكون كل منا من بناء التقدم أي من يوظفون الضائير . في سبيل خدمة البشرية والتضام العام . انما يعترى الإنسان في القيام بواجبه هذا شيء من الذعر إذ ليس بإمكان فرد ان يعمل اليوم وحده : وابعاد البشرية أبعاد كونية . فعلى المجتمع بأسره ان يتجدد : على الدولة ان تخوض معركة الانسان وكرامته لتحسن الاوضاع وتجعلها أكثر انسانية : وتتعاظم مع البلدان الأخرى لتجعل التوجه الاساسي في المعاملات توجيهاً خيراً يعتبر فيه الانسان لا خادم الاقتصاد بل غاية . ويعتبر الاقتصاد خادم الانسان في تربيته . ولهذا يصير من الواضح ان التملك على الخيور الأرضية خلافاً لذاته ولكن في خدمة الجميع . فتصبح الصناعة الضرورية لتطور الاقتصادي وللتقدم الانساني علامة وعاملاً للتقدم والترفي .

انما الوعي الوطني يقضي بان يصبح كل شعب من شعوب الارض أكثر إنتاجاً فيعطي بنيه مستوى حياة انسانية حقاً ويسهم في تقدم البشرية بتعاون اعضائها .

إذ ذلك يؤول العمل الجماعي المنظم الى توزيع عادل لخير الارض وإلى تقيم الثقافة ببرامج وتوجيهات تعطى على الصعيد الدولي .

=

تتطرق الرسالة البابوية بعد ذلك الى مشاكل دقيقة قتردد مع توما الأكويني وبيوس الثاني عشر وعلماء الاجتماع المسيحيين ان للملكية صفتها الاجتماعية وغايتها الاجتماعية ، فتتخذ الليبرالية في الاقتصاد والتواعد المتبعة في تبادل التجاري والحرية في استعمال العائلات ، التسم اذا لم يكن في كل ذلك مبدأ اخلاقي يوجه وينسق . فكل خير الارض هي في خدمة الإنسان ، في خدمة تفتحها الشامل وفي خدمة الناس اجمعين دونما تمييز . ومن الضروري ان يحرر الانسان من كل عبودية تنتج عن الملكية والرأسمال والليبرالية . وما تبقى من حقوق : حتى الحرية في التبادل الاقتصادي وحتى الملكية فانها تخضع لهذا المبدأ الاساسي وعليها ألا تمرقل المساعي لتحقيقه بل ان تواتيه . ومن الضروري ان تُعاد كل هذه الحقوق الى غايتها الاولى .

فالملكية الخاصة ليست حقاً مطلقاً غير مشروط وليس للانسان ان يحتفظ لنفسه بما يتجاوز حاجته عندما يرى انساناً في العوز .
والاقتصاد ليس للكسب والمزاحمة بين المتنافسين . غاية الاقتصاد خدمة الانسان .

وقواعد التبادل التجاري الحر ليست وحدها تلك التي توجه العلاقات الدولية . علينا ان نخضع للعدالة الاجتماعية : وذلك بان يدفع الثمن العدل للمواد الاولية التي تنتجها البلاد النامية . وبان تثبت بين انشائي والتبائع مساواة في النفع بعد ان تكون تثبت بينها مساواة في الحوار والمعاملات التجارية .

انما ما لا يجوز أن يقرب عن بال هو ان ما ينشئ في البلاد الثرية من الخيول يجب ان يقدم للبلاد النامية . ولا يسمح لبلد من البلدان الثرية ان يذّر . فالضيمر السليم يأنف من التبذير اياً كان . على صعيد الفطرسية الشخصية او الوطنية او للتسلح .

•

لن يصبح الانسان انساناً كاملاً الا اذا انفتح على آفاق الثقافة والتربية . فمن برامج تدريس وتعرض وتحتق الى احترام الموجود من ثقافة ومدنية عند شعوب أكلها العوز المادي ، الى تشجيع ما يظل : حتى بعد قرون : يدائياً ليتطور وينضج ، كل هذا يساعد الجميع على بناء مدنية عالية ، تتكاتف فيها الإرادات الصالحة والتي تنبع من احترام الانسان لآخيه الانسان ومكاملة بينها أساسها الاخوة والمحبة . إذ ما معنى الاقتصاد والتقنية والعلم التّم يوضع هذا كله في خدمة الانسان ليكمل ويثمر ثماراً ياتعة يهيء للاجيال الطالعة عالماً تسوده الإنافة والتكاتف المستمر .

ولكن اينجح الانسان في هذا ؟ اليس بحاجة لتساند جهوده الى مؤسسة عالية تضمن : بقوة القانون والتشريع ، تطلع الانسان الى فوق مع آخيه الانسان وتحمّد باستمرار انسة البشر في سيرهم الى الكمال .

خاتمة

أنتم من خلال هذه الافكار التي عرضتها والتي هي أفكار البابا بولس السادس في رسالته «تقدم الشعوب» ميلاً إلى الشيوعية أم إلى الاشتراكية المتطرفة؟

إن الخاسي التطويل : في انقسم الأول من هذا المقال : على الانسان وعلى غاية حياته : وعلى صلته العميقة : الكيانية بالمسيح التي يقوم علينا اذا ما عاشنا حقاً في واقعه اليومي : اكبر تقدم وتطور وترقي : لبعدها كل البعد عن الشيوعية الملحدة التي تنكر وجود الله ولا تعطي الإنسان أبعاده الروحية : تلك الأبعاد التي هي حقيقة الانسان . وعلاوة على ذلك فان الشيوعية : وإن اعطت الاقتصاد حلولاً وافية . فانها لتظل عاجزة عن حلّ الغاز الحياة ورموزها : عن اعطاء الانسان معنى حياته : ذلك المعنى وتلك الغاية التي يتوق اليها الانسان والتي لا يجدها في الخرنوب الذي يملأ جوفه ولكن في كلمة الله المتجسد الذي تعطيه الكنيسة للبشر نوراً وهدياً . ولكن هذا لا يعني - وقد نوهنا بذلك سابقاً - أن الرسالة البابوية لا تعرض على أوضاع فيها ظلم وجور . انما الاعتراض ليس سليماً وهداماً : ولكنه يدعو الى البناء ، بناء عالم حيث يستطيع كل انسان ان يعيش حياة إنسانية كاملة : وحيث الحرية ليست كلمة فارغة . والترقي يقتضي تبديلاً جذرياً : ثورة اساسية تقوم على الإنابة الى الله وعلى المشاركة وعلى الحق . فالمشكلة اذاً هي مشكلة روحية سياسية قانونية وادبية .

واذا ما كان على المسيحي وعلى كل ذي ارادة صالحة ان يحارب الفقر وان يقاوم الظلم ، فما ذلك الا لأن عليه ان يعزز التقدم الانساني والروحي ، اي خير الانسانية الشامل . اذ السلام ليس فقط في انعدام الحرب . السلام يُبنى يوماً بعد يوم ، وذلك في تحقيق نظام أرادته الله .

وهذا البرنامج ليظل نظرياً وفي عالم الخيال لولا تفوذه الى صعيد العمل . دقت ساعة العمل وحن الوقت . ان حياة العديد من الاطفال الايرباء والتوصل الى اوضاع انسانية في عيل هجرتها الكرامة لكثرة قمرها ، كل ذلك يملو في خطر التهميب الانسان الى نصرة الانسان اخيه . إنما قداسة البابا لم يعط برنامجاً للعمل . وهذا لا يخل في نطاق رسالته .

فهو يدعو الى الحوار: الى التبادل والاتفاقات والمعاهدات الدولية ولى القوانين العادلة ولى العمل المشترك والمنسّق : في روحانية عالية . ومآل هذا كله تكوين التاريخ البشري البرم .

وإذا كانت القوة في عصرنا الراهن تجربة" للانسان في عالم جامد حيث امتيازات البعض لا ترضى عن هذه الاوضاع بديلاً . وكأنها صارت بمثابة التحدي للآخرين :

إذا كانت القوة ميزة عالم تكاد تهجره روح النخام : فهناك امكانات يستطيع بها الانسان أن يخلص : فيبدأ بتنظيم عالم حسب أسس صحيحة عادلة : يبنء عالم انساني حقاً . وهذا لا تعود البشرية التهتري الى عصور مظلمة قائمة : او بالحري لا تسير نحو موت محتم . وقداسة البابا يرشد لنا الامل في أن للتوق الى التعاون عند جميع الناس النصر على الأنانية والأثرة .

وفي معرض كلامنا هذا نقول أن قداسة البابا بولس لم يتكلم عنى توزيع الملكية ولكن عن معناها الاجتماعي في خظمة الآخرين - وهذا امر لا يتجادل فيه اثنان - فالتوزيع يتعلّق بظروف كلّ من البلدان ويتطور العقلية وبالامل في انجاح عملية كهنه عند شعوب درت على الافادة منها .

لقد رست الخطوط الكبرى لرسالة البابا بولس السادس في تقدم الشعوب ، وهي الخطوط التي يبرز من خلالها تقدم شامل في تعاون متبادل . كان عليّ ان اذكر كل ما يعترض هذا التقدم من صعوبات وعقبات كالتقوية والعنصرية مثلاً : وأن اذكر بعض المعضلات كالعائلة في عصرنا الراهن ومشكلة تحديد النسل : الى ما هنالك من أمور تطرّق اليها قداسة الحبر الأعظم .

إنما من خلال ما تقدم نرى أن علينا أن نغير العقلية وهذا يتطلب اختياراً وعملاً على كلّ الأصعدة حتى السياسي منها . والاختيار يقتضي منّا جرأةً للاقدام والنيات . فعلى المسيحيين ، يقول بولس السادس : أن يتعشوا بالروح المسيحية العقلية والآداب والشرائع وريثات الحياة ، فهناك تبديلات ضرورية وتغييرات جديدة .

إن رسالة ابابا بولس السادس نبعث من قلب مسيحي متألم لاوضاع
 لا تمت الى الدين المسيحي بشيء : كان عليه بعد ذلك في كل سفراته
 ان يرددها في بومباي او في بوغورا او في جنيف . وما ذلك لترديد سوى
 التعبير اليراني عن دعوة يوجهها للفقير فرداً كان او بلداً ليوقظه من سباته
 ويندله على الطريق . وما هو ايضاً سوى الدعوة العارضة الى الشري .
 فرداً كان او بلداً . نعمي واجباته في عالم تطور فيه العلم والشنية .
 وينفتح لآفاق التكاتف والحوار والاخوة .